من تراب الطريق (٣٤٣) وفاء ولاد البلد ! (*)

كنت قد استقلت من عدة شهور من القضاء العسكرى لأعود إلى المحاماة .. بيتى الأصلى والرسالة التى خلقت لها .. فى أوائل سنة ١٩٧٧ جاءنى بمكتبى الذى خصصت له غرفة الجلوس أو المسافرين بتعبيرات زمان ، من شقتى الصغيرة بالدقى المكونة من ثلاث غرف وصالة فى (١٠) شارع عكاشة الذى ولد ونشأ ومارس الخطوات الأولى لكرة القدم فيه ـ الثلاثى الحبيب الكباتن صالح وعبد الوهاب وطارق سليم .. جاءنى المعلم ح . ب من أهالى شبرا .. يشكو إلىّ ظلم الحكومة التى حققت معه وأحالته إلى محكمة عسكرية عليا بتهمة إخفاء أشياء مسروقة من القوات المسلحة ـ طبنجة ٩ مم ـ وإحرازها بدون ترخيص !

سألته ما الذى أوصل طبنجة للقوات المسلحة إليه حتى يعتب على الحكومة أنها أحالته عنها إلى المحاكمة العسكرية ، فحكى أنه اشتراها بمنتهى حسن النية من السوق بحر ماله ، حين أعلنت الحكومة فى أعقاب نصر ١٩٧٣ أنها تعطى فترة سماح للتبليغ عن حيازة الأسلحة غير الآلية لترخيصها .. وأنه إذ صدق الحكومة وأخذ الطبنجة مشتراة وذهب إلى قسم شرطة روض الفرج للتبليغ عنها وترخيصها .. إلاّ أنه فوجئ هناك

(*) المال ٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٩

بأن الإجراءات المقررة تستوجب عرض رقم قطعة السلاح على القوات المسلحة للاستيثاق من أنها ليست لها ، ثم شاء نكد طالعه أن استبان من رقم الطبنجة أنها للقوات المسلحة سرقت أو تسربت فيما تسرب إبان نكسة ١٩٦٧ .. فأحالته الشرطة إلى النيابة العسكرية التى بدأت التحقيق معه ، حيث روى روايته وطفق يرسل المراسيل لإحضار من باع الطبنجة إليه ، فاستبانت له مصيبة أخرى أن البائع نصّاب استخدم اسما مزيفا وفص ملح وداب بعد أن قبض منه الثمن !

كان الصدق واضحا فى لهجته ، وقد علمتنا الممارسة الطويلة وبعض ما عركناه فى علم النفس ، أن نزن ما نسمع ، وأن نفرز الصدق من الكذب ، والصادق من المحتال .. فقررت قبول القضية ، ولكنى فوجئت أن مرام الرجل الطيب ليس النجاة من العقوبة الجنائية ، فهى ليست فى تقديره ولا يتصورها ، وإنما هو يريد أن يسترد الطبنجة لأنه دفع ثمنها من ماله ، واشتراها بحسن نية ، ولم يكن بمستطاعه أن يعرف حين اشتراها أنها تخص أصلا القوات المسلحة أو مسروقة منها ، لأن الطبنجة ـ وكانت ماركة حلوان ٩ مم ـ من منتجات المصانع الحربية ، ولها مثيل وتباع بالأسواق ، وأنه ضحية حسن النية ، هكذا قال له البعض ، فكيف يأخذون منه الطبنجة بعد أن دفع ثمنها من ماله الذى جمعه من كده وعرقه !

طفق الرجل الطيب يطالبنى ببذل ما أستطيع لاسترداد طبنجته ، مادام الأمر العسكرى الذى استجاب له يعفيه صراحة من عقوبة الإحراز أو الحيازة بدون ترخيص .. فما المشكلة إذن فى أن يردوا إليه الطبنجة أو

ثمنها المدفوع . أما السرقة فلا شأن له بها ، والإخفاء فلا محل له لثبوت حسن نيته وعدم علمه بأن الطبنجة مسروقة من الجيش مادام لها مثيل يباع فى الأسواق !!

بذلت مجهودًا مضنيا فى إقناعه بأن الحكم ببراءته هو غاية المراد .. إبراؤه من تهمة الإخفاء إذا اقتنعت المحكمة بانتفاء العلم والقصد الجنائى ، وإعفاؤه من عقوبة جريمة الإحراز بمقتضى الإعفاء الذى تضمنه الأمر العسكرى لمن يبادر فى خلال المهلة بتقديم ما لديه من سلاح !

ترافعت فى القضية أمام المحكمة العسكرية العليا ، وكانت آنذاك بمعسكرات العباسية بالمنطقة العسكرية المركزية ، فقررت المحكمة بعد سماع المرافعة حجز الدعوى أسبوعين للحكم .. وتصادف يوم الحكم الذى صدر بالبراءة ، أن كنت جالسًا مع بعض الزملاء تحت شجرة وارفة أمام غرفة المحامين ، لأفاجأ بالمعلم ح . ب وقد جاءنى فرحًا مهللًا وشاكرًا .. وبادر والفرحة تغمره ، بأن أخرج حافظته ليدفع لى ٣٠٠ جنيه مؤخر الأتعاب المستحقة عن الحكم بالبراءة .. وكان غريبا جداً أن يبادر الرجل هذه المبادرة مع أنه لفت نظرى أنه كان قد أحضر مقدم الأتعاب بفئة الجنيه وشرع يومها فى عده جنيها جنيها ، لولا أن كفيته ذلك مؤكدًا له ثقتى فى أمانة عده .. ولكنى لم أملك أن أمد يدى لأخذ مؤخر الأتعاب .. وكان المبلغ آنذاك قيمةً لى على الأقل .. وأشرت عليه بإحضاره إلى المكتب فى المساء .. ولم أكد أعود إلى الزملاء حتى بادرنى القدامى بالنقد والضحك لفرط سذاجتى واعتقادى أن الرجل

سيأتى إلى المكتب .. وقال قائلهم : ألم تسمع مقالة مكرم عبيد إن أعداء المحامى هم موكلوه ، فهم أعداؤه إذا خسر القضية ، وأعداؤه أيضا إذا كسبها ليهربوا من سداد مؤخر الأتعاب !

أجل سمعت . ولكنى سمعت من أبى رحمه الله رحمة واسعة ، وكان من جيل المحامين العظام فى الزمن الأول ـ سمعت منه تحذيرًا .. قال يوم بدأت معه المحاماة فى أغسطس ١٩٥٩ : إياك من ثلاثة أخطاء .. إياك والسماسرة ، وإياك أن تخادع المحكمة فى بيان مرجع أو حكم تستشهد به ، ثم إياك أن تتقاضى مليما خارج مكتبك .. لم أتصور ولا كان فى وسعى أن أقبض المؤخر وإن كان حقى ـ بخارج مكتبى ، حتى وإن كلفنى ذلك ضياعه !

من الزملاء من قدَّر وجهة نظرى ، ومنهم من افتعل ذلك ، ومنهم من لم يستطع أن يخفى ابتسامة إشفاق .. ولكن المدهش أن المعلم ح . ب الذى قطعوا بأننى سوف أرى أنه فص ملح وداب ، ولن يأتى إلى مكتبى أبدًا ، لا هذا المساء ولا فى أى مساء .. كان المدهش العجيب ، أن هذا الرجل البسيط جاءنى ليلا ليدفع ما عليه مشمولا بشكره وعرفانه .. وفاءً بواجب علمتنى الحياة أن أتوقعه من البسطاء وأولاد البلد قبل أن أنتظره من أولى الثراء والأحساب والأنساب !

*****